الدرس الثالث والعشرون

شبهات وحلول

- لماذا بقي الكثير من الناس محرومين من هداية الانبياء؟
- لماذا لم يمنع الله الكثير من الخلافات والانحرافات؟
- لماذا لم يمتلك الأنبياء الامتيازات الصناعيَّة والاقتصاديَّة؟

من خلال البرهان الذي ذكرناه لضرورة بعثة الأنبياء (ع) تبرز عدَّة أسئلة وشبهات نستعرضها ونجيب عنها في ما يلي:

الشبهة الأولى

إذا كانت الحكمة الإلٰهيَّة تقتضي بعثة الانبياء لهداية الناس جميعاً، اذن لماذا بُعث جميع الأنبياء في منطقة جغرافيَّة معيَّنة (الشرق الأوسط) بينما بقيت المناطق الأُخرى من المعمورة محرومة من هذه النعمة، وخاصَّة مع الأخذ بنظر الاعتبار محدوديَّة وسائل النقل والارتباط وتبادل المعلومات، في الأزمنة القديمة، بحيث كانت الأخبار تنتقل بصعوبة ومشقَّة من منطقة لأُخرى، وربَّما وُجِدت شعوب كانت ـ آنذاك ـ محرومة تماماً من رسالات الأنبياء، ولم تطَّلع على دعوتهم أبداً؟

والجواب عن هذه الشبهة:

أوَّلاً: إنَّ ظهور الأنبياء (ع) لم يختصَّ بمنطقة خاصَّة، والآيات القرآنيَّة الكريمة تدلُّ على أنَّه كان لكلِّ قوم وأمَّة نبيٌّ، كما في الآية (٢٤) من سورة فاطر: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

والآية (٣٦) من سورة النحل: ﴿وَلَقَد بَعَثنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدُوا الله وَاجتَنِبوا الطّاغوتَ﴾ وإذا ذُكرت في القرآن المجيد أسماء بعض الأنبياء العظام (ع) دون أن يُذكر غيرهم، فلا يعني ذلك أنَّ عددهم منحصِر بهؤلاء المذكورين، بل إنَّ القرآن نفسه يصرِّح بوجود أنبياء كثيرين لم تُذكَر أسماؤهم في هذا الكتاب الشريف، كما في الآية (١٦٤) من سورة النساء: ﴿وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصهُمْ عَلَيْكَ﴾.

ثانياً: إنَّ البرهان المذكور لضرورة الوحي يفرض وجود طريق آخر ـ غير

الحسّ والعقل ـ يمكن الاستفادة منه في هداية الناس، وأمّا حصول الهداية للأفراد فعلاً فمشروط بشرطين:

أحدهما: إختيارهم الاستفادة والتزوُّد من هذه النعمة الإلٰهيَّة.

ثانيهما: أن لا يضع الآخرون موانع وعقبات في طريق هدايتهم.

والملاحظ أنَّ حرمان الكثير من هداية الأنبياء، إنَّما نشأ من سوء اختيارهم، أو نتيجة للموانع التي وضعها الآخرون في طريق رسالة الأنبياء وأنتشارها. ونحن نعلم أنَّ الأنبياء قد بذلوا أقصى جهودهم في إزالة هذه الموانع والعقبات، واندفعوا لمكافحة أعداء الله، وخاصَّة المستكبرين والجبابرة، وقد ضحَّى الكثير منهم بأرواحهم في سبيل إبلاغ الرسالة الإلٰهيَّة وهداية الناس، وحين كانوا يجدون أنصاراً لهم وأتباعاً، كانوا يشنُّون الحرب ضد الجبابرة والطواغيت والجائرين، والَّذين كانوا من أكبر العقبات والحواجز في سبيل نشر الدِّين الإلٰهي.

والملاحظة التي يجدر التأكيد عليها؛ إن هذه الخصوصية وهي (اختياريَّة المسيرة التكامليَّة للانسان) تفرض أن تتمَّ كلُّ هذه القضايا والمواقف، بالصورة التي تبقى معها الأجواء التي يلزم توفُّرها لحسن اختيار أحد الاتجاهين أو سوءه: (الحقّ والباطل) إلّا أن تصل سيطرة الجبابرة وأهل الباطل وتحكُّمهم الى مرحلة يُسدُّ معها ـ تماماً ـ طريق الهداية أمام الآخرين،ويطفىء نور الحق والهداية في الأُمَّة. وفي هذه الحالة فان الله سوف يمدُّ يد المعونة لأنصار الحقِّ، ويوصل إليهم المدد، من طُرق غيبيَّة وغير عاديَّة.

والحاصل: إنه لو لم توجد مثل هذه الموانع والعقبات في طريق الأنبياء، لوصلت دعوتهم الى أسماع البشر جميعاً في العالم، ولتزوَّدوا قاطبة من نعم الهداية الإلٰهيَّة عن طريق الوحي والنبوَّة.

إذن فحرمان الكثير من الناس من هداية الانبياء، يقع على عاتق اولئك الَّذين حالُوا دون انتشار رسالتهم، ووقفوا حجر عثرة في طريق دعوتهم.

الشبهة الثانية

إذا كانت بعثة الانبياء من أجل إكمال الشروط التي يلزم توفُّرها لتكامل الناس، اذن فلماذا وُجِدَ كلُّ هذا الفساد والانحطاط في العالم، بالرَّغم من وُجُودهم؟

ولِمَ كان أكثر الناس في أغلب العصور يعيشون الكفر والعصيان، وحتّى أتباع الأديان السماويَّة يعادي ويحارب بعضهم بعضاً، حيث أشعلوا الكثير من الحروب الدامية والمدمِّرة؟

ألا تقتضي الحكمة الإلٰهيَّة أن يوفِّر الله تعالى أسباباً أُخرىٰ تمنع من ظهور كلِّ هذه المفاسد، وعلى الأقلّ لا يقوم أتباع الأنبياء بمحاربة بعضهم بعضاً؟

والجواب عن هذا السؤال:

يتَّضح الأمر جليّاً من خلال التأمُّل في الخصوصيَّة التي ذكرناها ـ وهي اختياريَّة المسيرة التكامليَّة للانسان ـ وكما ذكرنا فان الحكمة الإلٰهيَّة تقتضي توفير أسباب التكامل الاختياري (لا الجبري) وشروطه للبشر، حتى يتمكَّن اولئك الذين يريدون أن يسلكوا طريق الحقِّ من التعرُّف على هذا الطريق، وليتوصَّلوا ـ من خلال سلوكه ـ الى كمالهم وسعادتهم. ولكنَّ توفير هذه الأسباب والشروط لمثل هذا التكامل لا يعني أنَّ كلَّ البشر يحسنون الاستفادة منها، وسيختارون الطريق الصحيح حتماً، وكما يعبِّر القرآن الكريم، أن غاية خلق الله للناس إنما هي: ﴿لِنَبْلُوَهُم أَيُّهُم أَحسَنُ عَمَلاً﴾ الكهف الآية (٧).

كما جاء في عدة صيغ ضمن آيات القرآن المجيد[1]. وكما أكَّد عليه مراراً في القرآن الكريم، إنه تعالى لو أراد لهدى الناس جميعاً الى طريقه المستقيم[2] ولصانهم ـ تماماً ـ من الانحراف، وعلى هذا سوف لا يبقى مجال

---

(١) الآيات: (٧) من سورة هود، و(٧) من الكهف، و(٢) من الملك، و(٤٨) من المائدة، و(١٦٥) من الانعام.

(٢) الآيات: (٣٥، و١٠٧، و١١٢، و١٣٧) من الانعام. و(٩٩) من يونس، و(١١٨)=

للاختيار، وسوف تفقد أفعال البشر قيمتها الانسانية، وسوف ينتقض الغرض الإلٰهيُّ من خلق الإنسان المختار.

والحاصل: إن اتجاه الناس نحو الفساد والضلال والكفر والعصيان، إنَّما يستند الى سوء اختيارهم، وقد لوحظت في كيان خلقهم هذه القدرة على أمثال هذه الاعمال، ولكن وصولهم للوازمها وآثارها، قد قُصِد بصورة غير مباشرة وبالتبع، لا بصورة مباشرة وبالأصالة، فإنَّ الإرادة الالٰهيَّة ـ وإن تعلَّقت مباشرة وأصالة بتكامل الناس ـ ولكن بما أنَّ ما تتعلَّق به هذه الإرادة مشروط بالاختيار، فلا ينفي السقوط والانحطاط الناشىء من سوء الاختيار وان الحكمة الالهية لا تقتضي تحرُّك الناس جميعاً في الطريق الصحيح جبريّاً، وإن خالف رغبتهم وارادتهم.

الشبهة الثالثة:

مع ملاحظة أن الحكمة الإلهيَّة تقتضي وصول الناس ـ بصورة أكثر وأفضل ـ للكمال والسعادة، أليس من الأفضل أن يكشف الله تعالى للناس أسرار الطبيعة من طريق الوحي، ليمكّنهم ـ من خلال الاستفادة والتزوُّد من أنواع النعم الإلهيَّة ـ من دفع عجلة تكاملهم وتقدُّمهم الى الامام بصورة أسرع، كما هو الملاحظ اليوم بأنَّ اكتشاف الكثير من القوى الطبيعيَّة في القرون الأخيرة، وآختراع وسائل الحياة وأسبابها؛ كان له دوره الفاعل والمدهش في تقدُّم الحضارة وتطورها، وتحقيق الكثير من المنجزات في مجال حفظ الصحَّة والسلامة، ومكافحة الأمراض، وتبادل المعلومات، وآتساع الارتباطات والعلاقات وأمثالها. ومن الواضح أنَّ الأنبياء لو كانوا يساعدون الناس ويعينونهم على توفير الصناعات المدهشة، ووسائل الراحة، لكان لهذا العامل تأثيره الكبير في نفوذهم الاجتماعي، وشعبيتّهم، وقوَّتهم السياسيَّة، ولأمكنهم الوصول ـ بشكل أفضل ـ لأهدافهم المشودة؟

= من هود، و(٩، و٩٣) من النحل، و(٨) من الشورى، و(٤) من الشعراء، و(٢٥٣) من البقرة.

الجواب: إنَّ الحاجة الرئيسة لوجود الوحي والنبوة. إنَّما تتمثلَّ في الأمور والمجالات التي لا يمكن للبشر الوصول اليها بوسائل المعرفة العادية، حيث لا يمكنهم ـ في حالة الجهل بها ـ تحديد اتجاه حركتهم نحو الكمال الحقيقي والسير في مساره.

وبتعبير آخر؛ إن مهمَّة الأنبياء الرئيسة هي إعانة الناس على تحديد الاتجاه لحياتهم، ومسيرتهم التكامليَّة، حتى يمكنهم التعرف على وظائفهم في شتى الظروف، وليستخدموا قواهم وطاقاتهم في سبيل الوصول الى الهدف المنشود، سواء كانوا من اهل البوادي والخيام، او من اهل المدن والحضارات والمنجزات التكنولوجيَّة المتطوّرة، ليتعرفّوا على القيم الانسانية الأصيلة، وعلى وظائفهم وتكاليفهم في مجال عبادة الله، وفي حياتهم الشخصيَّة والفرديَّة، أو تجاه بني نوعهم وسائر المخلوقات، حتى يمكنهم ـ من خلال ممارستها ـ الوصول الى كمالهم وسعادتهم الحقيقيَّة الأبدية.

أمّا اختلاف القابليّات والاستعدادات والامكانات الطبيعيَّة والصناعيَّة سواء كانت في زمان واحد، أو في أزمنة مختلفة، فأنَّما هو نتيجة أسباب وعوامل معيَّنة، وليس لها تأثير فاعل ومصيري في التكامل الحقيقيِّ والمصير الأبدي، كما هو الملاحظ اليوم بأنَّ التطور العلمي والتكنولوجي الذي أدّى الى اتساع المنجزات والمعطيات المادَّية والدنيويَّة وتطوُّرها، لم يؤثِّر في التكامل المعنوي والروحي للناس، بل يمكن القول بأنَّ تأثيرها كان معكوساً.

والحاصل: إن مقتضى الحكمة الإلهيَّة أن يتمكَّن الناس ـ بالاستفادة من النعم الإلهيَّة ـ من إدامة حياتهم الدنيويَّة والاستمرار بها، وان يمكنهم من خلال الاستفادة من العقل والوحي، تحديد اتجاه تحرُّكهم نحو الكمال الحقيقي، والسعادة الأبديَّة.

أمّا الاختلاف في القوى والطاقات البدنيَّة والروحيَّة، واختلاف الظروف الطبيعيَّة والاجتماعيَّة، وكذلك آختلاف الاستفادة من العلوم والصناعات، فإنها كلُّها خاضعة لأسباب وعوامل تكوينيَّة معيَّنة، وتوجد وفق نظام العلَّة والمعلول السائد في الكون، وليس لهذه الاختلافات أيُّ تأثير فاعل في المصير الأبدي للناس.

فربمّا كان هناك فرد أو جماعة، تعيش أكثر انماط الحياة بساطة وحرماناً، ولم تتزوَّد إلاّ بالأقل من النعم والثروات المادِّية والدنيويَّة، ولكنَّها بلغت الدرجات والمستويات العالية في مدارج الكمال والسعادة.

وفي المقابل، ربَّما كان هناك فرد أو جماعة، تستفيد من أكثر المنجزات والعلوم تطوُّراً، وتتمتعَّ بأفضل وسائل المعيشة المريحة والمترفة، ولكنها ـ ونتيجة لكفران النعمة والغرور، والاستكبار والظلم للآخرين ـ وقد سقطت وانحدرت الى أسفل دركات الشقاء والانحطاط.

والملاحظ أنَّ الانبياء ـ إضافة لقيامهم بمهمَّتهم الرئيسة وهي هداية الناس نحو الكمال والسعادة الحقيقيَّة والأبديَّة ـ قد قدَّموا للبشرية خدمات ومساعدات مثمرة وكبيرة، ليمكنهم ـ من خلالها ـ المعيشة بشكل أفضل في هذه الحياة الدنيويَّة. وكلَّما اقتضت الحكمة الإلهيَّة فإنَّهم كانوا يزيحون قليلاً بعض الستائر والحُجُب عن بعض الحقائق المجهولة، وأسرار الطبيعة وكنوزها، ليعينوا ـ بذلك ـ تقدُّم الحضارات البشريَّة، كما تلاحظ نماذج من هذه المساعدات في حياة داوُد وسليمان وذي القرنين (ع)[1] وكذلك قد بذلوا الكثير من الجهود في سبيل ادارة المجتمع، وحسن التدبير في الأُمور، كما هو الملاحظ في حياة يوسف (ع) في ارض مصر[2]، ولكن هذه الخدمات والمساعدات تُعتَبر زائدة عن وظيفتهم ومهمَّتهم الأصلية.

وأمّا ما ذُكِر في السؤال: لماذا لم يعتمد الأنبياء على القوى الصناعيَّة، والاقتصاديَّة والعسكريَّة في سبيل الوصول الى أهدافهم؟ فنقول: إننا ذكرنا ـ مراراً أنَّ هدف الأنبياء (ع) هو توفير الظروف والاجواء المناسبة للاختيار الواعي والحر، واذا ما أرادوا الاعتماد على القوى غير العاديَّة في ذلك، فلا يتحقَّق مثل هذا الرشد المعنوي والتكامل الحر للبشر، بل إنَّ الناس سوف

---

(١) انظر: الانبياء/٧٨ ـ ٨٢، والكهف/٨٣ ـ ٩٧، وسبأ/ ١٠ ـ ١٣. ومما يلزم التأكيد عليه انه يستفاد من بعض الروايات أن ذا القرنين لم يكن نبيّاً وإنما كان من أولياء الله.

(٢) يوسف/٥٥.

يتّبعونهم تحت ضغط القوّة والقهر، لا بدافع إلهي وعلى أساس الاختيار الحر.

يقول أمير المؤمنين (ع) في هذا المجال:

(ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه ـ حيث بعثهم ـ أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وان يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء.... ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام، وعزة لا تُضام، وملك تُمدُّ نحوه أعناق الرجال، وتُشدُّ إليه عقد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيّات مشتركة، والحسنات مقتسمة. ولكن الله ـ سبحانه ـ أرادا أن يكون الاتباع لرسله، والتصديق بكتبه، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته؛ أموراً له خاصّة لا تشوبها من غيرها شائبة. وكلما كانت البلوى والاختيار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل) [1].

أجل... حينما يتجه الناس لدِين الحق برغبتهم واختيارهم الحر، ويوفّقوا لاقامة مجتمع إلهي قائم على اساس رضا الله تعالى؛ بعد ذلك تجدر الاستفادة من شتى القوى من أجل تحقيق الأهداف الإلهيَّة، وخاصَّة القضاء على المعتدين، والدفاع عن حقوق المؤمنين، كما تلاحظ نماذج من ذلك في ظلّ حكومة سليمان (ع)[2].

---

(١) نهج البلاغة/الخطبة القاصعة/ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢/ د. صبحي الصالح، وأنظر سورة الفرقان/٧ ـ ١٠، والزخرف/٣١ ـ ٣٥.

(٢) الأنبياء/٨١ ـ ٨٢، والنمل/١٥ ـ ٤٤.

الأسئلة:

١ ـ هل بُعث جميع الأنبياء في منطقة جغرافيَّة معيَّنة؟ وما هو الدليل على ذلك؟
٢ ـ لماذا لم تنتشر دعوة الأنبياء في كل أنحاء العالم؟
٣ ـ لماذا لم يوفِّر الله تعالى ظروفاً وأسباباً تمنع من المفاسد والحروب المدمِّرة؟
٤ ـ لماذا لم يكشف أنبياء الله للناس أسرار الطبيعة، ليتمكَّن اتباعهم من الاستفادة من النعم الماديَّة بصورة أكثر؟
٥ ـ لماذا لم يستفد الأنبياء من القوى الصناعيَّة والاقتصاديَّة، في سبيل تحقيق أهدافهم؟